A. الموجة السامية الثانية: الكنعانيون.

تحويل المناطق السورية ومناطق الفرات الأوسط الى سامية.

تكون الشعب الفينيقي العتيد

I. الموجة السامية الثانية (حوالي ٢٩٠٠)
استقرار الكنعانيين والفينيقيين والأموريين والأكاديين

١ ـ حركة شعوب في مدّ وجزر

في عصور ما قبل التاريخ، إن هجرات الشعوب الشرقية قديمة قدم الزمن. كل ما لدينا أنه بين الألفين الخامس والرابع استقر السومريون القادمون من الشمال الشرقي الآسيوي في بلاد ما بين النهرين السفلى وتبعتهم نحو منتصف الألف الرابع جالية سامية قادمة من الجنوب هم الأكاديون الأولون، حملتها موجة التوسع السامية الأولى أو ما قبل الأكاديين كانوا أول عناصر سامية استقرت كمجموعة في بلد زراعي.

وابتداء من العام ٣٠٠٠ فإن المعطيات التاريخية تسمح لنا بجلاء بتتبع تحركات الشعوب البدوية فضلاً عن سياسة التوسع التي انتهجتها الشعوب والدول الحضرية. فالممر السوري-الفلسطيني أصبح من الآن وصاعداً مركز استقطاب للبدو والحضر على السواء. وأخذت ثلاثة مراكز توسعية كبيرة تصدر موجاتها عبر المناطق الشرقية بالتناوب أو معاً فتندفع تلك الموجات لتهدم أو تدمر انجازات السكان الأصليين المَهَرَة. وكانت الهضبة السورية-العربية تطلق بشكل شبه دوري جماهيرها البدوية لغزو الأراضي المزروعة. ومن جهة أخرى كانت مصر وبلاد ما بين النهرين مشدودتين باستمرار، الأولى باتجاه فلسطين ـ فينيقيا والثانية نحو سورية الشمالية. وبالاضافة الى قواعد التوسع أو الغزو الثلاث الآنفة برز مع نهاية الألف الثالث، مركز آخر، هو مركز الشعوب الشمالية: الهندو ـ أوروبية والآسيوية من مناطق أبعد.

إن حركة هذه المجموعات البشرية في مدّ وجزر على مسرح الشرق القديم اكتست كل أشكال التوسع: هجرة، اجتياح، تسلل، استيطان. وكانت تعقب هذه التنقلات المتكررة دائماً تغييرات سياسية وعرقية واجتماعية عميقة الى حدّ ما.

يقول هنري بير «إن المجموعات البشرية لا علاقة وثقى لها بالبيئة الطبيعية فهي تنطلق في المدى رغبة بتحسين وضعها ويستقر بعضها في مكان سكن ملائم يقومون بترتيبه، والآخرون الأنكد حظاً أو مهارة أو أكثر قلقاً يتابعون حياة البداوة. وقد أشرنا الى هذه الغريزة الحيوية التي فيما تركز المجتمعات، فإنها تقيم الحواجز فيما بينها فتصبح على تضاد. وهناك طمع جشع وشهوة معقدة ـ هادفة تارة الى خيرات البيئة وطوراً الى الموارد الطبيعية أو النفسية التي يمثلها هؤلاء المحتلون ـ يدفع البدو ضد الحضر ويجعل الحضر يتخاصمون، ويدفع البعض الى طرد الآخرين أو إخضاعهم وتسخيرهم أو ابتلاعهم. إن الأمبريالية أو الاستعمار هي إرادة توسع، إرادة شرسة. ويمكنها أن تأخذ أشكالاً مخففة ولكنها بحسب مبدئها فهي نقيض الاتحاد للحياة. وهي في المجتمعات الترجمة الأنانية، الأنانية المطلقة، لحاجة الكون أكثر ما أمكن»[1].

أ ـ الموجة السامية الثانية: الكنعانيون، الفينيقيون إلخ...

حوالي العام ٣٠٠٠ كانت قد مرت قرون عديدة على موجة التوسع السامية الكبيرة الأولى التي أطلقت الى مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين العناصر العرقية الأولى. بيد أنه وفي هذه البلدان الثلاثة كان العنصر الأصلي ما زال سائداً في تلك المرحلة الانتقالية للتاريخ.

وحوالي العام ٢٩٠٠ أفرغ الخزّان السامي من جديد موجاته الدورية. الموجة الأولى التي تدفقت خلال الألف الرابع ألقت بذور السامية العتيدة في الهلال الخصيب، وأما الموجة الجديدة التي سوف تجعل هذه السامية تتقدم فسوف توطن الكنعانيين في فلسطين والفينيقيين في لبنان والأموريين في سورية والأكاديين في بلاد ما بين النهرين الوسطى.

إن هؤلاء الغزاة الجدد الذين سموا بعدها فقط بالكنعانيين والأموريين والأكاديين والفينيقيين كانوا يشكلون مدّاً واحداً من الشعوب قذفته موجة واحدة. إننا نجهل أسماءها الحقيقية أو على الأصح أسماء قبائلها يوم وصولها. إن الأسماء

1 H. Berr, *En marge de l'histoire universelle*, p. 116.

التاريخية التي ذكرناها والتي عرفت بها تلك الشعوب لاحقاً تتعلق بالبلدان التي استقروا فيها. أما لغاتهم المحلية المماثلة في الأصل فسوف تختلف بحسب المناطق وخلال القرون.

فهؤلاء منهم الذين استقروا في بلاد كنعان أي في السهول الفلسطينية والشواطىء اللبنانية فأصبحوا الكنعانيين وأما أولئك الذين اندفعوا حتى وادي العاصي أي بلاد أمورو أو غرب سورية فغدوا الأموريين أو الغربيين. وأخيراً فإن جزءاً من هؤلاء الأموريين بتجاوزهم الى بلاد ما بين النهرين فإنهم عززوا الساميين المحليين من مجموعة الموجة الأولى وأسسوا معهم حوالي ٢٨٤٥ سلالة مدينة أغاده أو أكاد. ومن اسم هذه العاصمة الجديدة استمدت بلاد الفرات الوسطى وسكانها الساميون اسمهم التاريخي فيما بعد وهو: أكاد والأكاديون.

ب ـ الفينيقيون العتيدون على الشاطىء الفلسطيني-اللبناني .
تأسيس مدن غزة وصيدا وصور

إن هذه الانتقالات أو التنقلات للشعوب القادمة من المناطق العربية حركت أيضاً أشقاءهم الفينيقيين الأولين المتوطنين في النقب وعلى ضفاف البحر الأحمر. وهؤلاء بالفعل ليسوا سوى فرع من الكنعانيين المزعومين. وإن عرى القربى الوثيقة بين مجموعتيهما تشهد عليها وحدة اللغة الكنعانية ـ الفينيقية ووحدة الأسماء. وأما تسمية فينيقي فلم ترد إلا بعد نحو ألفي سنة.

إن هجرة القبيلة الأم نحو الغرب فتحت لفينيقي منطقة البحر الأحمر الأولين من تجار وبحّارة فرصة مدّ نشاطهم في الإتجاه نفسه وأن يستعمروا الشاطىء المتوسطي لصالح تجارتهم. ونحو ذلك العهد فقد يكون توافر الأمن على طريق شمال سورية والإزدهار الناشىء في الفرات الأوسط منذ استعماره من قبل الساميين إجتذبا نحو الشاطىء المتوسطي الحركة التجارية بين بلاد ما بين النهرين ومصر وأثارا أزمة تجارة في البحر الأحمر. وحوالي العام ٢٩٠٠ فإن جزءاً من الفينيقيين الأولين مصاحباً أو تابعاً الكنعانيين الأولين استقر على الشاطىء الفلسطيني.

أما مرافئهم الجديدة على هذا الشاطىء: عسقلان وأشدود ومجدو وغزة، فما لبثت أن أصبحت مخازن للبضاعة من بلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية ومصر. وبعد أن أصبحوا أسياد النقب والبحر الأحمر والشواطىء الفلسطينية وجه الفينيقيون

الأولون التبادل التجاري العابر للصحراء والجزيرة العربية إما نحو مصر الوسطى عن طريق البحر الأحمر او الى دلتا النيل عن طريق المتوسط. وهكذا فتحت طريق جديدة تصب على غرار طريق جبيل على البحر المتوسط.

غير أن هذه الطريق الجديدة لم يكن بوسعها الإضرار بطريق الشمال المستثمرة من قبل الجبيليين. فالشواطىء الفلسطينية المستوية والتي لا مراسي طبيعية فيها لم تكن لتقدم الى السفن القديمة حماية كافية. ومن جهة أخرى فطريق الشمال كانت أقصر وآمن. وهذه الأسباب أملت، على الفينيقيين الأولين الراغبين في مكافحة منافسة جبيل، توسعاً إقليمياً يتيح لهم الوصول إلى الطريق الشمالية. فصعدوا إذن نحو الشمال واحتلوا حوالي العام ٢٨٠٠ مواقع صيدا وصور. ففضلاً عن مراسيها الطبيعية، فإن هاتين المدينتين تتمتعان بموقع أفضل من موقع جبيل لأنهما تتحكمان بمدخل طريق طبيعية هو منخفض الليطاني المؤدي الى سهل البقاع وسورية الشمالية. وفي الوقت نفسه تقريباً فإن جماعات من الفينيقيين الأولين الذين سعوا الى مرافىء طبيعية حسنة الموقع استقروا في أوغاريت شمال اللاذقية وربما وصلوا وقتئذ الى جزيرة ارواد.

وهكذا أصبح لجبيل الآن منافسون جديون. وعلاوة على الموقع الجغرافي الملائم فإن للصيدونيين والصوريين ميزة أخرى هي انتماؤهم الى شعب من الملاحين والتجار كان سائداً من شاطىء المتوسط حتى ضفاف البحر الأحمر.

غير أن هؤلاء المهاجرين الساميين-الكنعانيين الذين سيسودون ويطمسون السكان الأصليين والذين سينفحون في البلاد حياة جديدة لم يكونوا مع الأسف قادرين نظراً لضآلة عددهم وضيق أرضهم أن ينتصروا في نضالهم ضد نفوذ القوى الكبرى المحيطة بهم. إن مصر خاصة كانت تعتبر المنطقة اللبنانية مجالاً حيوياً لأسباب اقتصادية ثم أضيفت اليها فيما بعد ضرورات استراتيجية.

ج - تحول المناطق السورية الى سامية وتعزيز ساميي بلاد ما بين النهرين

إن الموجتين الساميتين اللتين أشرنا اليهما: موجة الألف الرابع وموجة العام ٢٩٠٠ المعززتين بالعناصر السامية المتسربة خلال القرون التي تفصل بينهما، قد غطت السكان غير الساميين في المستطيل السوري وجزء كبير من بلاد ما بين النهرين. وبانصهارهم مع المجتاحين وتبني لغاتهم ومفاهيمهم الاجتماعية أصبح الحضر الأصليون خلال الألف الثالث ساميين. وشكلوا بعدها مجموعات مهجنة يغلب فيها

العنصر السامي. بيد أنه في بلاد ما بين النهرين السفلى فإن السومريين احتفظوا بوحدتهم العرقية واللغوية الخاصة. وأما الموجة الثالثة وهي موجة الساميين الأموريين والتي انهمرت بدورها بعد ذلك بستة قرون ستقضي على مقاومة تلك البؤرة الأسيانية الهامة فضلاً عن المجموعات الأخرى التي كانت لا تقهر حتى ذلك التاريخ. إننا نجهل ما إذا كانت، وخلال هذا الألف الثالث، حافظت جماعات من السكان الأصليين المقيمين على شاطىء المتوسط على لغاتها غير السامية.

٢ ـ العالمان الساميان القديمان

نحو منتصف الألف الثالث لم يعد العالم السامي مقتصراً على سكان الصحارى السورية العربية فقط. فهجرات البدو من هذه المنطقة القاحلة باتجاه المناطق المزروعة في الهلال الخصيب قد عدلت المظهر العرقي اللغوي للحضر الأصليين. فالكنعانيون والفينيقيون والأكاديون والأموريون وكذلك ساميون استقروا

المرحلة الثانية: ٢٩٠٠ ـ ٢٤٠٠

هجرة الساميين البدو وتوسع البلدان الحضرية

«بعدما انتهى الخالق من خلقه، دارت مباراة لمعرفة من يصل قبل الآخر ومن يثبت مدة أطول، هل هي مصر النيل أم بلاد ما بين نهري دجلة والفرات. . .

وكتب ألاّ تكون هذه أو تلك من هاتين الأرضين المحظوظتين، إذ كانت العناية الإلهية تخفي مشتركاً ثالثاً، قيض له أن يتجاوز الإثنين الآخرين: وقد كان الأدقع فقراً وعراء والأقل استقراراً. وان نجاحه قد استمده تحديداً من فقره وعرائه وعدم استقراره. إنه. . . بدوي الصحارى. . . رحّال الخيمة، العربي السامي».

(ج. هانوتو، تاريخ الأمة المصرية، المقدمة العامة، I، ص. III).